تفريغ المجلس (٠٢١)

"تتمة الباب الخامس - "ذكر بعض رؤساء البربر (بوكوس الثاني / يوبا الأول / مصانسيس / بوغيد الأول / عرابيون / بوكوس الثالث)"[1].

[١٩ - بوكوس الثاني (٨٠ - ٤٠)]

كان بوكوس الأول ملكا على موريطانيا الغربية، وبعد يوغورطة أضيفت إليه موريطانيا الشرقية، وقد تسمى نوميديا الغربية، وكان له ولدان أحدهما بوكوس الثاني هذا والآخر بوغيد الأول الآتي ذكره ولما توفي سنة (٨٠) اقتسم الابنان مملكته، فأخذ بوكوس الثاني موريطانيا الشرقية، وهي ما بين صلداي وملوشات، ذلك الوطن الذي أخذه أبوه بالخيانة أو الجبن والبلاهة[2].

اتخذ بوكوس الثاني عاصمة مملكته هاته يول (شرشال)[3]. وكان - كبقية ملوك عصره- غير- بعيد عن المعارك التي تقع برومة بين الزعماء، إذ قد وجد أوليك الزعماء في الوطن البربري ما يساعد كل واحد

[1] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لهن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فنحن الآن في ذكر ما عنون له المؤلف مبارك الميلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه "تاريخ الجزائر" في ملوك البربر، وتوقفنا عند رقم ١٩، فنحاول أن نقرأ قراءة عابرة، إلا ماكان فيه تعليق يسير.

[2] فيما مضى في ذكر ماصينيسا ويوغرطة

[3] وهذا سيأتي في ذكر مدن البربر التي كانت رئيسية ومنها يول وهي شرشال.

منهم، لأن مرض المنافسة الذي كان يفتك بزعماء رومة كان يجري بدماء عظماء البربر أيضا، فكل حزب برومة يجد له عاضدا بأفريقية[4].

أفضت الزعامة برومة إلى بمبيوس محارب يرباص، ونافسه يوليوس قيصر، وأفضت المنافسة إلى المحاربة. فانتصر قيصر برومة والأندلس.

---

[4] يعني كما كان فيه تناقض في روما في الرئاسة، كذلك كان في البربر. وكل واحد من البربر يريد أن يجد من يعضده من روما، وروما أيضا.

حب الرئاسة والتسلط من المصائب العظام، حتى قال بعض العلماء، آخر شيء يخرج من قلوب العلماء حب الرياسة، ليس كلهم ولكن فيه تنافس، هذا حتى بين العلماء، ومنه هذا الذي ذكرت في ترجمته وهو عبد الملك بن حبيب بن مروان المالكي، صاحب كتاب "**الواضح**" كان يتكلم فيه لا يشهد إلا بأنه فاق الكثير من أقرانه، فكان محدثا فقيها لغويا قويا في الفقه رَحِمَهُ اللهُ عبد الملك بن حبيب، وهو في فقه مالك رَحِمَهُ اللهُ على طريقة المدنيين، يعني يعتمد الآثار أكثر فقيل فيه هذا، وقيل في غيره هذا الكلام: آخر ما يخرج من قلوب لعلماء حب الرئاسة، ولهذا تجد التناحر والسطو والتعالي من أطراف، وأنتم ترونه وتسمعونه، حتى يكون من بعض أهل العلم. لأسباب ومنها هذه، أن يكون قد انغرس في النفس حب التقدم. لهذا على الإنسان أن لا يكون ميالا لحب الرئاسة والتقدم على الناس، والذم والمدح زينه وشينه ما كان عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتبحث أن تكون ممدوحا ومقدما عند الله، واحذر من أن تكون مذموما عند الله ومؤخرا عند الله، هذا الذي تحذره، أما كون الناس يقدمونك أو يؤخرونك، ويجعلونك على منصب أو رئاسة، فلا يقضى شيء إلا بمشورتك وأمرك، أو أن تكون صاحب أمر ونهي والقطع والبت، في محال وجودك سواء في بيتك، أو في مؤسستك، أو شركتك ومحل عملك، أو بين زملائك، وبين جمعياتك، فهذا لا ينبغي، وإنما الإنسان يقوم بأمر جل وعلا، فإذا وجد غير هذا لا بد أن يداويه، وإلا سيتركك تعتدي من حيث لا تشعر، وأنت تفعل وتبرر هذا بالتبرير الشرعي، وإلا فأنت كيف تتصور الناس يفتون بقتل العلماء، شيخ الإسلام ابن تيمية أفتي بالقتل، وسجن ومات في السجن $ وهذا كان له أسباب كثيرة، قد يكون من الأسباب الخلاف العقدي، وفيه أسباب أخرى التي هي الحسد، وقضية أن يتقدم على غيره، ويكون له تقدمة ونحو ذلك.

فإذن احذر من هذه الرئاسة أو حب التقدم على العموم، وأن تكون مفضلا، وأن تحوم على القلب، فيصير الإنسان يوالي ويبترأ لأجلها، فيفتعل أشياء يظنها شرعية وليست كذلك والموعد عند الله، وكل ما يفعله الإنسان يجازى عليه، وهذه المصيبة التي قد تخفى على كثير من الناس لفرط حجب الشيطان لها عن الأعين، فيتصرف بأشياء الذي يرى كأنه لا يوجد يوم سيلقى الله تبارك وتعالى، فيأذن لنفسه بأن يتكلم بالباطل لغيره من أجل أن يكون هو المقدم وغيره مؤخرا. هذه مصيبة.

وكان بالوطن الجزائري ثلاثة ملوك: يوبا بن هيمصال ومصانسيس وبوكوس الثاني. وكان مصانسيس متحدا مع يوبا. ويوبا هذا يبغض قيصر منذ حامى عن خصم أبيه برومة وقبضه من لحيته، فتحزب لمبيوس، وهذا سبب نجاح البمبيين أولا في وطن البربر، فلما رأى قيصر أن ينقل الحرب إلى أفريقية وعلم أن البربر بها ضده كاتب بوكوس وآخاه يدعوهما لنصرته بالهجوم على مملكة يوبا، وقيصر هذا ابن أخي زوجة مريوس الذي كان بوكوس الأول أعانه على يوغورطة، فكانت هذه القرابة داعية لتلبية بوكوس الثاني لطلب قيصر، يضاف إليها داعي المنافسة بين ملوك البربر[٥].

وسنرى فيما يلي تفصيل هجوم بوكوس على مملكة يوبا وانتصار قيصر وانتحار يوبا.

ولما نجح قيصر بعد معركة طبسوس سنة (٤٦) جازى بوكوس الثاني على إعانته له بأن أضاف له موريطانيا السطيفية[٦].

ومن غير شك أن هذا الملك كانت له دولة راقية. فقد كانت أوسمة له يمنحها لأهل الأعمال الكبيرة في دولته. يدل على ذلك ان الباحثين عن الآثار عثروا على وسام به صورة بوكوس الثاني راكبا فرسه، وهو مجد في عدوه، وبيمينه قضيب يسير به فرسه كيف شاء، وبشماله آلة الرمي[٧].

---

[٥] دائما المنافسة، والمنافسة تكون في الخير، المنافسة والمسابقة والمسارعة، في المسارعة لا يلزم أن تكون مع طرف ثان، وأما المسابقة فيها طرف {فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ}البقرة١٤٨، ومثله المنافسة تقتضي وجود طرف آخر.

[٦] يعني جهة سطيف.

[٧] علماء الآثار ينقبون فيجدون هذه الآثار، وبالتخمين يعني بالتقدير والظن يقولون إن هذه الآثار ترجع إلى كذا وكذا ويبنون على ذلك أبحاثا وتوثيق أشياء، وكتب وتواريخ، وتخصص تاريخ، والطالب يحفظ تلك الأشياء ويمشي عليها، ويختبر فيها، ويعطى الشهادات ...الخ بناء على هذا، والله أعلم بصحتها، ولا يجرؤ أحد من هؤلاء المؤرخين أن يكذّب، ثم يأتون إلى السنة التي يرويها العلماء الأئمة الحفاظ جيلا عن جيل، ويسمعها اللاحق من السابق قطعا وجزما، لا يستطيع أحد أن يزيد أو ينقص فيها أبدا، ويحاولون الطعن فيها، يقولون: إن هذه السنة يستحيل أن تصل بزيادة أو نقصان، وكيف وصلتنا بعد ١٤٠٠ سنة، هذه أشياء مقطوعة يقطع بها سماعا، اللاحق يقول: سمعت السابق، فكيف تأتي وتشكك أنت في السنة، في حين أنك تنقل أقوالا لبقراط، وبطليموس، وأرسطوطاليس، أقوال لبعضهم قبل الميلاد، ويوثقونها إلى غير ذلك، ولا يجرؤ أحد أن يكذّبها، بل تعتبر نظريات وتُدرس، وقد نالوا حولها شهادات دوكتوراه، وماجستير ونحوها.

مملكة بوكوس هذا كلها مشتراة من ملوك النوميديين بخيانة أبطال الاستقلال البربري[٨]، وكما أن أباه رزأ البربر يوغورطة رزأهم هو- ومن يشابه أباه فما ظلم[٩]- يوبا.

فإذن هذه الدعاوى التي تثار هنا وهناك حول السنة هي دعاوى لا تثبت من الناحية العلمية، وإنما يروجها أصحاب النزوات والشهوات.

[٨] هذه الكلمة الجميلة التي قالها: رجال الاستغلال أبطال الاستقلال، بالخيانة.

[٩] في بيت للعرب:

بأبِه اقتدى عدي في الكرم * ومن يشابه أبه فما ظلم**

(أبه) هذه لغة عند العرب، في الأسماء الخمسة وهي أنها تُعرب بالحركات لا بالحروف، فقال الشاعر (بأبه) والأصل أن يقول (بأبيه)، وقد يكون الوزن اقتضى ذلك، المؤلف هنا جاء بشطر البيت على صوابه، فأتاه على اللغة المشهورة التي هي إعراب الأسماء الخمسة بالحروف، أباه منصوب بالألف، والأصل في الأمثال التي تجري على كلام الناس أن تنقل كما هي، هذا الذي عليه أهل العلم ومنهم من يقول يغيرها على الصواب، كالمثل الذي يقول (مكره أخاك لا بطل) نحويا اللغة المشهورة مكره اسم مفعول، فيعمل عمل الفعل لما لم يسم فاعله، فإذا يأتي بعده نائب فاعل، نائب الفاعل مرفوع، وهنا نائب الفاعل من الأسماء الخمسة، فرفعه يكون بالواو، لكن الذي نطق من العرب بهذا المثال نطقه هكذا مكره أخاك لا بطل، فإذا جئت أنت لتستشهد بهذا المثل في سياق، والمثل هذا المقصود منه أنك أحيانا تفعل شيئا وأنت لست راضيا، فتقول (مكره أخاك لا بطل) هل تحكي المثال على ما هو عليه كما نقل في كتب الأمثال، أو أنك تصوبه؟ الأكثر على أنك تحكي كما هو، وبعضهم يختار أنه يصوب، وينطق به على الصواب لا على الخطأ

[٢٠ – يوبا الأول JUBA 1 (٥٠ – ٤٦)]

يوبا الأول هو ابن هيمصال الثاني، اعتنى به والده، فأرسله إلى رومة حيث تعرف إلى الحضارة الرومانية في منبعها، وكان له شغف بالحروب، فحفظ لذلك من السقوط في مضار الحضارة، وعاش- حربيا شجاعا[١٠].

كان هذا الملك ينطوي على مثل ما انطوى عليه سلفه مصينيسا ويوغورطة من الاستقلال بالوطن البربري وطرد النفوذ الروماني منه[١١]، فاستعد لتحقيق أمنيته بتنظيم الجيوش وتدريبها، وكان بهذا الوطن شذاذ[١٢] من أمم مختلفة يؤجرون أنفسهم في الحروب[١٣]، ورجال من الرومان نفتهم الأحزاب المضادة لهم المتغلبة على أحزابهم[١٤]. فاتخذ منهم يوبا جيشا منظما يكون مثالا للبربر في النظام العسكري[١٥].

لم يلبث هذا الملك- بعد تبوء عرش مملكته- إلا قليلا ودخل في حروب طاحنة ختمت بانتحاره، وذلك أن بمبيوس صديق والده كان رئيس الجنود الرومانية التي لنظر مجلس الشيوخ، وظهر يوليوس قيصر في مظهر السيد المستبد، وحاول أن يسقط الجمهورية الرومانية، فنشبت الحرب بينه وبين بمبيوس، وقد عرفت أن كل اضطراب يقع برومة يكون صداه بأفريقية[١٦].

---

[١٠] أخذ من حضارة رومة ولكن كان شديدا لأنه درّب على الحروب، فلم ينغمس في حضارة رومة، فلا يطلب الاهتمام بالحضارة.

[١١] هذا ثالث من مر معنا، كان في همصال شيئ من هذا لكن كان يميل، لكن الذين كانت لهم رغبة أكيدة في الانفصال مر معنا: مصينيسا وغدر به، ويوغرطة كذلك، ثم هذا.

[١٢] جمع شاذ، يعني كان هناك من كان شاذا، الشاذ المنفرد.

[١٣] يعني يحارب معك ويقف معك بالمال.

[١٤] لأن رومة نفوا وطردوا فنزلوا أرض الجزائر.

[١٥] لأنهم لهم خبرة بجند رومة.

[١٦] هذا نسطر عليه ونجعه مثالا، وما أشبه الليلة بالبارحة، كل مشكلة في الجزائر تنبعث من فرنسا، وكل اضطراب في فرنسا يرسلون إلينا شيئا منه، لهذا قال أحد الفضلاء صلة بجمعية العلماء وهو مؤرخ، يبين شدة تدخل فرنسا في الجزائر وشدة إثارتها للقلاقل والبلابل في بلدنا الجزائر يقول: أنا أعتقد أنني لو تخاصمت مع زوجتي في المطبخ -أقول-

تغلب قيصر على بمبيوس وانتزع منه إيطاليا، ففر فاروس (أحد ضباط بمبيوس) إلى إفريقية ومعه جنوده. وأعلن التشيع لبمبيوس وأخذ في اصطناع يوبا، فلم ينس هذا الملك صداقة بمبيوس لوالده ولا عداوة قيصر له ولا أضاع عليه فرصة انشقاق الرومان لتنفيذ برنامجه الاستقلالي، ففعل فعل عمه يرباص وانتصر للحزب المغلوب بايطاليا.

وفي سنة (٤٩) وجه قيصر إلى إفريقية من ضباكه كريون، وكان عدوا شخصيا ليوبا، واقترح على مجلس الشيوخ أن ينتزعوا من يوبا مملكته التي ورثها من أبيه، وأعلنت شيعته برومة أن يوبا عدو لجميع الرومان[١٧]، نزل كريون بالولاية الرومانية، ودارت بينه وبين فاروس مناوشات الجأت فاروس إلى الفرار إلى عوتيقة (بوشاطر) فحاصره كريون بها، وساءت حالة البمبيين، فجاء يوبا بجنود كثيرة نجدة لهم وعملا لفائدة الاستقلال البربري، ففك الحصار عن عوتيقه، وفر كريون إلى أحد المعاقل وتحصن به. ثم أشيع- لإخراج كريون من حصنه- أنه ثارت ثورة بمملكة يوبا وأنه ذاهب لإخمادها، وترويجا لهذه الإشاعة تأخر يوبا بجنوده وأفياله، ولم يترك منهم إلا قليلا تحت قيادة قائده صبورة، فتقدم هذا القائد بجنوده القليلة الى حصن كريون، فتسلل كريون من حصنه ببعض جنده، وكان عنده أسرى نوميديون، فايدوا له خبر ذهاب يوبا إلى مملكته، والقى بنواحي مجردة بطلائع الجيش النوميدي، فهجم عليهم من غير احتراز بناء على اعتقاده ذهاب يوبا، وتأخر النوميديون أمامه تأخرا نظاميا: يناوشونه الحرب ثم ينهزمون، وما زالوا معه كذلك حتى قربوا مكانا كمن به يوبا. وأدرك كريون ومن معه التعب من جراء فعل النوميديين ذاك. فما هالهم إلا إحاطة جنود يوبا الكثيرة بهم من كل ناحية، وكان بجنود يوبا ألفا

هذه تدبيرة من فرنسا. يقصد ما وجده من خلال التاريخ الذي درسه ويدرّسه ويعلمه، وأنا قلت وذكرت في مقدمة لكتاب أن المؤرخين لهم نظرة، يحتاج إليهم في بناء الدول، ومن لهم السلطة على الدولة رئيسا أو ملكا، لأن المؤرخ له نظرة وله تحليل، فقال إن رومة كان لها أثر في إفريقيا، لا تريد أن تبقى مطمئنة، لا أن يحكمها واحد بل يحكمها أكثر من واحد، يكون فيه تنافس وحقد، ويكون لأحد من يملك بعض هذه الجوانب يكون له ولاء لرومة لما تغدق عليه سواء من الأموال أو غيرها.

[١٧] وبالتالي مبحوث عنه عند الرومان وخارج الرومان، وهكذا يفعل الآن نفس الشيء.

فارس من الإسبان والغاليين، فلم يجد كريون - والحالة تلك- غير الاصطلاء بنار يوبا[١٨]، فاشتد القتال، وانتهى باستئصال جنده واخذ رأسه إلى يوبا، وذلك في العشرين من يونيه سنة (٤٩).

تعزز يوبا، بهذا الانتصار ورأى أنه قد أتيح له أن يعلن بسيادة البربر الوطنيين على الرومان الغرباء، فعاد إلى عوتيقه عاصمة الولاية الرومانية. وأظهر عظمته على الرومان حتى البمبيين أنفسهم، وصار كثيرا ما يقدم نفسه للسيادة عليهم وعلى جنودهم، يتخذ الجميع كآلة بيده. ويحتج لسيادته بانه هو الذي قتل كريون وجنوده، ولولاه لذهب أثر البمبيين من أفريقية كما ذهب من ايطاليا. وزاد في قوة حجته وتأييد سيادته انه غني جدا وصاحب الكلمة النافذة في وطنه.

وقد بلغ من استعلائه على البمبيين أن سبيون رئيسهم جاءه يوما لابسا حلة حمراء مطرزة بالذهب - وهذه الجبة من شعار الملوك اذ ذاك- ليظهر ليوبا عظمته، فأنف منه، وأمره بانتزاعها ولبس البياض فلم يسع سبيون إلا الامتثال.

كان بمبيوس لما انهزم بايطاليا ذهب إلى مصر، ولما بلغ الإسكندرية دس إليه بوثان من قتله، ولكن شيعته لم يحل من عزمها موته حيث وجدت في يوبا أقوى عضد لها بأفريقية، وتلاحق إليها من عظماء هذا الحزب ميتلوس، سبيون- وهو صهر بمبيوس غير سبيون الأفريقي وسبيون الأميلي- فبلغها سنة (٤٨) ثم قاطون سنة (٤٧).

ولما دخل قاطون عوتيقه وجد سبيون وفاروس مختلفين على رئاسة الجند، كل يريدها لنفسه، ووجد يوبا مستعليا عليهما وجالسا بينهما كما هي عادة الملوك، فلم تسمح له نفسه بمشاهدة هذا المنظر المزري بجنسه، فرفع الكرسي ووضعه إلى جانب سبيون بحيث يكون وسطا ويبقى يوبا طرفا، وأراد بهذا الفعل إشعار يوبا بأن السيادة للرومان، ثم وحد بينسبيون وفاروس.

بعد ذلك تفرغ البمبيون لتنظيم شؤونهم، ولم يتأخر يوبا عن إعانتهم، تفاوضوا أولا فيمن يخلف بمبيوس لرئاسة حزبهم وتدبير حربهم، واتفقت كلمتهم على تقديم سبيون لهذا المنصب فتهيأ للحرب. وجمع أربعين ألف جندي وخيلا كثيرة أركبهم العبيد والموالي.

---

[١٨] يعني الحرب.

وأمدهم يوبا باربع فرق منظمة تنظيما رومانيا، فيها اثنا عشر ألف جندي وخيل كثيرة. وأمدهم أيضا برجال كثيرين من البوادي غير المنظمين و (١٢٠) فيلا، وتولى سبيون نفقات جميع جنود يوبا ودفع مرتباتهم.

يوبا- وإن أعان البمبيين- لم يكن مخلصا لهم، فأخذ يشير على سبيون بما يبغّض الرومان إلى البربر لئلا يكون لأجنبي نفوذ بوطنه على قومه[١٩]. فأشار عليه بجبر سكان الولاية الرومانية على تسليم حبوبهم لتموين الجند وجبر التجار منهم على تقديم الأموال، فنفذ إشارته بصرامة حتى أنه خرب لذلك مدنا كثيرة، ثم أشار عليه بتتبع المتشيعين لقيصر حتى المتهمين بالتشيع: باستئصالهم وقتل ذريتهم ونسائهم. وكان جل من بعوتيقه قيصريين، ولكن سبيون تفطن هذه المرة للدسيسة، فدافع يوبا بأن هذا عمل يغضب الرب، ولو استرسل سبيون في غفلته وعمله باشارات يوبا لثارت عليه العاصمة (عوتيقه)، واشتغل الرومان بعضهم ببعض، وتفانوا، فتبقى الولاية الرومانية ليوبا غنيمة باردة، وذلك ما كان يأمله لتحقيق غايته الاستقلالية[٢٠].

بلغ الخبر إلى رومة بقوة سبيون ويوبا، فدخل الرعب قلوب القيصريين، ولكن قيصر رأى أن يتمم انتصاراته بنقل الحرب إلى أفريقية.

وإذ قد ارتأى هذا الرأي فهو مضطر للاستنصار بملوك البربر، وقد علم أن يوبا مصانسيس ضده، فكاتب بوكوس الثاني وبوغيد الأول ليشغلا له يوبا، ووعدهما اقتسام مملكته، فكانا له على يوبا.

في منتصف اكتوبر سنة (٤٧) توجه قيصر إلى أفريقية على طريق صقلية، ونزل بنواحي قليبية من عمالة تونس، وعند نزوله عثر فسقط على الأرض فقبضها ونادى- خشية الطيرة التي تضعف من

---

[١٩] يعني لا يكون هو أجنبيا في البربر، وإن كان لم يوافق مع الأحزاب الرومانية لكن لا يكون له نفوذ هنا، يبقى تحت سلطتهم.

[٢٠] هكذا السبيل للدول التي تريد أن تستغل غيرها تثير الفتنة فيما بينهم حتى إذا ضعفوا وتقاتلوا تكون لهم غنيمة باردة سهلة، مثلما يفعل الأسد لما يتعبه اصطياد الفريسة الغزال وغيره، يكمن لها حتى تدخل في صراع مع بعض، فإذا ضعف أحدهم سهل عليه أخذه من غير تعب.

عزائم جنده-: " أفريقية! قد قبضتك ". ونزل معه من الجنود نحو (٣٠٠٠) مشاة و (١٥٠) فارس، وتأخر بقية الجند في البحر[٢١].

لما نزل قيصر جد سبيون في تجنيد بربر الولاية الرومانية، فوجد قلوبهم منحرفة عنه لعسفه وجوره وتعديه على أموالهم، وروما هذه الولاية متشيعون لقيصر لأن عمته كانت تحت مريوس غالب يوغورطة، فلم تبق لسبيون ثقة في أهل الولاية الرومانية من بربر وروما.

هنالك اضطر لمفاوضة يوبا على الوجه الذي يهواه، فطلب منه النجدة على أن يترك له إفريقية متى انتصر ويعود بالرومان إلى إيطاليا، فلم يشك يوبا في انه قد أشرف على تحقيق غايته. فأعانه بفرسان نوميديا الذين لهم شهرة من أيام حنبعل، وبالأفيال الكثيرة. وكانت جنود يوبا هي عمدة سبيون.

---

[٢١] أول ما دخل عمالة تونس قليبية عثر فسقط، كأنه فيه إشارة إلى أن هذه الأرض لن تأخذها فارجع، فقد سقطت في أول دخولها من الفرس، فحتى يجتنب التطير، لما سقط قبض على الأرض وقال: قبضتك، يعني هي في يده، وهذا خشية الطيرة.

والطيرة غير جائزة نهى النبي ﷺ عن التطير والطيرة والتشاؤم، وهي من عادات الجاهلية، كان أحدهم إذا أقبل على شيء يأخذ الطير ويزجره، فإذا طار إلى اليمين قال: هذا الفعل الذي سأفعله مبارك، وإذا كان طار إلى اليسار تشاءم، أو يتقاسمون بالأزلام يعني ثلاث آنيات صغيرة، كالكأس، يوضع في واحدة افعل، لا تفعل، أو أقدم وأحجم، والثالثة ما فيها شيء، يخلطها ثم يُخرِج فإذا طلعت (افعل) يفعل، وإذا طلعت (لا تفعل) لا يفعل، وإذا طلعت التي ما فيها شيء توقف، وهذه لا تجوز لأنها معارضة للقدر، لأن المقصود من هذا أن الدنيا تسير هكذا من غير تقدير مقدّر والله ﷻ قال {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}القمر٤٩، وقال ﷻ {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}الفرقان٢، فكل أمر قدره ﷻ، ولهذا كان ﷺ يعجبه الفأل، قيل يا رسول الله ما الفأل؟ قال (الكلمة الطيبة) [أخرجه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم(2224)] يعني مثلا تكون مقدما على شيء، فيقول أحدهم افتح الباب، أو يقول: قد فتحو لك الباب، فالنبي ﷺ في صلح الحديبية كانوا يتفاوضون معه كفار قريش، ثم جاء سهيل، فلمحه ﷺ من بعيد وقال: من هذا؟ قالوا: جاء سهيل، فقال النبي ﷺ (سهل أمركم) [صحيح البخاري (2731)]، أما التشاؤم فلا يجوز، الآن يرى قطا أسودا يقول: نهار منحوس! كلبا أسودا يقول: لا ربح، يلتقي مع شخص يكرهه أو يبغضه ولا يحمله يقول: لا خير اليوم.

واليوم يفعلون أشياء يظنونها مشروعة، يأخذ المصحف فيفتحه، إذا وافق آية نعيم أو جنة يقبل، أو آية عذاب يحجم، أو سورة بحسب اسم السورة، فهذا غير مشروع.

في نوفبر هذه السنة وقعت المعركة الأولى بين قيصر وضباط سبيون، وأحيط بقيصر فكاد يؤسر، ولكنه نجا بدهائه وسار نحو مركزه، فلحقته طائفة من فرسان نوميديا جاءت بعد المعركة، وعددها (١١٠٠) فلم يخلص منها إلا بعد اللُّتا والتُّيا، ورأى ان هذه المعركة على شدتها ليست من الأهمية بمكان لغيبة شخصي يوبا وسبيون عنها، فاهتم من بعدها وحصن مركزه.

كان لبمبيوس ولد صغير لحق بأفريقية، فاخذ قاطون ينفخ فيه روح الغيرة، ويستثير حميته بذكر تاريخ والده وجلائل اعماله، وأشار عليه بالسير إلى بوكوس حليف قيصر. فتوجه الولد اليه في الفي جندي تقلهم ثلاثون سفينة برسم الكف عن مملكة يوبا وعدم أشغاله عنهم، ولما نزل بالشاطئ وأخذ يتقدم نحو العاصمة أحاط به البربر واوسعوه شتما وفتكوا بمن معه، ونجا ببعض جنوده، فركب سفنه، وعاد خائبا.

وكان قيصر في حال سيئة، فاستمال رجلا إيطاليا يدعى ستيوس إلى نصرته، وكاتب بوكوس وأخاه بوغيد يعلمهما بأن يوبا سيذهب إلى حربه ويخلو لهما وجه مملكته، ويشير عليهما بالهجوم إذ ذاك.

علم يوبا بحرج موقف قيصر، وخفي عليه ما دبره مع ابني بوكوس الأول، فلم يكتم سروره بضعف عدوه، ورأى أنه قد قرب اليوم الذي يتمتع فيه بوعد سبيون، فجمع جنودا كثيرة وخيلا وفيلة. وأخذ يجول بها في البوادي والناس تنضاف إليه حتى كان قريبا من المنستير (بتونس).

وفي هذه الأثناء ذهب ستيوس إلى بوغيد مستعينا به، واتحد مع بوكوس، وهجما على مملكة يوبا، وفتحا قرطة[٢٢] بعد حصار لم تطل مدته، وفتحا أيضا حصنا (غير معلوم لدى المؤرخين) به مؤن يوبا وذخائره وأسلحته. واستأصلا سكان مدينتين من مدنه. وصارا يهددان بقية مدن نوميديا وباديتها، ولا يشاهد بها إلا النار والدم[٢٣].

---

[٢٢] من عواصم البربر الكبيرة.

[٢٣] لا ينبغي للحاكم والرئيس والسلطان والأمير أن يغتر بضعف العدو، يعني وإن كان قد ضعف العدو لكن لا تدري ما الذي يدبره، وما الذي يحيط بك منه، فهنا لما رأى القيصر ضعف حاله خرج مباشرة للقتال، لأنه يعرف أنه ضعيف، لكن هو كان قد جاء من خلف ظهره من يدخل إلى مملكته.

بينما يوبا في زهوه وسكره برائحة خمرة الانتصار[٢٤] إذ بلغه ما حل بمملكته، فتوجه في الحين وأغذ السير لإدراك أهل مملكته، واخذ معه كل ما أعان به سبيون من رجال وخيل وفيلة، ولم يترك له إلا ثلاثين فيلا غير مهذبة ولا مدربة.

ضعف سبيون بعد ذهاب يوبا عن مقاومة قيصر، فأرسل إليه يستحثه في اللحاق به، ويؤكد له وعده السابق. فلم يجبه إلى طلبه لاشتغاله بدفاع الهاجمين على مملكته، وقد يكون من غرضه أن يدع الرومان يتهالكون، ثم يرجع على الغالب منهم فيحاربه. ويطهر الوطن البربري من الرومان، ولكن سبيون ألح عليه حتى رحمه، وترك قائده صبورة لمقابلة ستيوس وبوكوس.

عاد يوبا إلى سبيون بألف ماش وثمانمائة فارس وثلاثين فيلا. ونزل في العشرين من دجنبر[٢٥] بجيشه خلف جيش سبيون، وفي التاسع والعشرين منه وقعت معركة شديدة بين المتحاربين.

وفي يناير سنة (٤٦) فر الى قيصر كثير من جنود يوبا الجيتوليين، وبلغ عددهم ألفا[٢٦]، وسبب ميلهم إلى قيصر أن ضباط هذه الفرقة كانت لآبائهم أراض انتعزتها منهم والد يوبا هيمصال، وأعادها عليهم مريوس بعل عمة قيصر، ثم تتابعت عدة وقائع كانت خاتمتها وأشدها واقعة طبسوس[٢٧] في هذه الوقعة تفاقمت الأهوال واشتد القتال، وانتهت بفوز قيصر وفرار اعيان حزب بمبيوس.

ذهب يوبا بعدها إلى مدينة زامة، وكان اتخذها عاصمته الثانية، ونقل اليها- لما عزم على حرب قيصر- نساءه وذريته وأمواله وجمع ببطحانها[٢٨] حطبا كثيرا، وأقسم أيمانا مغلظة: لئن غلبه قيصر ليحرقن

---

[٢٤] هذا استعمال لأسلوب مجازي، ليس بمعنى أنهم ما كانوا يشربون الخمر، لكن الاستعمال هنا مجازي.

[٢٥] يعني ديسمبر

[٢٦] دائما الجند الذين ليسوا أصل البلد وجنسه يخشى منهم الغدر.

[٢٧] جاء في التعليق: طبسوس مدينة على شاطئ البحر برأس ديماس (بتونس) يليها برا بحيرة صارت بها كجزيرة إذ لم تبق إلى المدينة إلا مسلكين ضيقين وهي من تأسيس الفينيقيين. ولم تخرب الا على عهد الفتح العربي. ومكانها اليوم موضع حراثة.

[٢٨] الأرض البسطة.

بذلك الحطب أهل المدينة ثم أهله ونفسه، فلما بلغها أغلقوا في وجهه الأبواب مخافة أن ينفذ فيهم أيمانه.

أظلمت الدنيا في وجه يوبا، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فصنع وليمة أكثر فيها من الأكل وشرب الخمر. ثم تحامل على سيفه ليريح نفسه من عناء الدهر، فلم يستطع الثبات على ذبابة السيف لغلبة الخمر عليه. فأمر أحد عبيده بقتله فقتله!

وهكذا انتهت حياة يوبا بعد ما كاد يحقق غايته ويطرد الرومان من إفريقية، وعلى قلة أيامه واشتغاله بالحروب كانت له دولة عظيمة وضرب السكة باسمه[٢٩]، وبلغ من عظمته أن صار لا يحفل بالرومان[٣٠]. على أنه جاء بعد ما أنهكت وطنه الحروب الداخلية، وتقاسمه أمراء متعددون، قال بعض مؤرخي الإفرنج: كان النوميديون إذ ذاك على غاية من الحضارة، وحالتهم أحسن من حالة أهل الجزائر على عهد الاحتلال الفرنسي"[٣١].

بقي صبورة يحارب ستيوس وبوكوس بعد انتحار ملكه حتى قتله ستيوس في معركة من المعارك. وشاءت الأقدار[٣٢] أن لا يبقى بعد ملكه للهوان والصغار.

---

[٢٩] يعني حتى النقود صارت باسمه.

[٣٠] ولا يطلب ودّهم.

[٣١] يعني الحضارة كانت فيهم من قبل، وهذا فيه تغليط للكثير من الناس الآن، الآن يسبون البلد ويسبون العرب، ويسبون الجزائريين، يقولون: ليسوا مؤدبين، وفاعلون ...الخ لكن لو نرجع من قبل في العهد القديم هذا، وبعد دخول النفوذ العربي، وفي العهد الإسلامي، كانت حرارة وفيه تطور ورقي لم ينعم به ملوك وأمراء أوربا في ذاك الزمان، وانقلب الحال لأسباب كثيرة.

[٣٢] قلنا هذه كلمة لا تسلم، نقول: شاء الله ﷻ، أو قدر الله، لأن الأقدار لا مشيئة لها، فلا يضاف المعنى للمعنى، وإنما القدر فعل الله، فكيف يقال: شاء القدر، وأراد القدر، مع أن القدر هو فعل الله، فيضاف الفعل إلى الله ﷻ نقول: قدر الله، وشاء الله، وقضى.

[٢١ – مصانسيس **MASNASSES** (٥٠ – ٤٦)]

مصانسيس كان ملكا على قسم سطيف من نوميديا ولا ندري الوجه الذي ورث به الملك على هذا القسم بعد ماصنتة[٣٣].

لما دخل يوبا في حرب قيصر كان هذا الملك معينا له على حربه وإعلاء شأن وطنه بأضعاف النفوذ الأجنبي أو إزالته.

ولما انتصر قيصر على خصومه بأفريقية اقتسم مملكتي يوبا ومصانسيس على أنصاره: القسم الشرقي من نوميديا جعله مستعمرة رومانية، وأطلق عليه اسم "أفريقية الجديدة" أو "نوميديا الحديثة" هذا القسم واقع شرقي قسنطينة، ويشمل قالمة وعنابة[٣٤]، ومملكة مصانسيس منحت لستيوس، وهي عبارة عن قرطة وروسفاد وشولو وميلوم وتوابعهن، ومن ههنا تعرف أن قول المؤرخين: مصانسيس ملك على قسم سطيف، مرادهم به ما يشمل هذه الولايات الأربع لا خصوص موريطانيا السطيفية، ووسع في مملكة بوكوس الثاني باضافة موريطانيا السطيفية اليها، وهي ما بين مساغا وصلداي، وجازى بوغيد الأول بأن أعطاه القسم الغربي من نوميديا.

هكذا وزعت مملكتا يوبا ومصانسيس على ثلاثة اقسام: قسم جعل مستعمرة رومانية وقسم اضيف لملكي موريطانيا الغربيين لانهما ليسا نوميديين ولكنهما على كل حال بربريان. وقسم جعل وسطا بينهما جغرافيا وسياسيا وهو الذي منح لستيوس، فان هذا الرجل ليس بربريا بل هو إيطالي لكنه يعمل لنفسه لا للرومان.

وسياقة خبره انه كان جنديا وترقى إلى أن صار واليا ثم عزل، فأغضبه العزل، وأخذ يسعى في جمع اللصوص والمتشردين من إيطاليا واسبانيا، فكون جيشا تحت طاعته، وصار يؤجره لمن يحتاجه من

---

[٣٣] كل هؤلاء الملوك سبق الكلام عليهم في ذكر الحال العام لقرطاجنة بعد دخول روما إليها ثم صار يعدد كل ملك لوحده.

[٣٤] حتى نعرف أن هذا الجنس الذي في هذا البلد مرجعه إلى هذه الأجناس التي كانت منذ القديم، والعرق دساس، ولهذا في أبناء هذا الوطن نفحات وأشياء وميول قد يكون لها أثر من الجنس القديم.

الملوك في حروبهم[٣٥]، وكان منصور الراية، فاشتهر ذكره وطار في الآفاق صيته، فربحت تجارته، وجمع اموالا كثيرة اشترى منها سفنا، وصار يشتغل بالقرصنة يغزو المراسي وينهبها، ولم تخف مكانته على قيصر، فراسله طالبا منه إشغال يوبا عنه، ووعده ببعض مملكته، فأجاب الطلب، وقضى له بالغلب. ونال من ذلك الأرب. فبقي اميرا بمملكة مصانسيس حتى اغتاله عرابيون كما سيأتي[٣٦].

[٣٥] يأخذ مقابل ذلك العطايا ويرتقي.

[٣٦] تستفيدون من هذا قانون الغاب: القوي يأكل الضعيف، هذه جملة طيبة (**فأجاب الطلب، وقضى له بالغلب. ونال من ذلك الأرب**)

[٢٢ – بوغيد الاول (٤٦ – ٤٤)]

بوغيد الأول هو ابن بوكوس الأول، انتصب ملكا بموريطانيا الغربية بعد وفاة ابيه سنة (٨٠) وأعان قيصر على يوبا، فمنحه القسم الغربي من نوميديا، وبذلك دخل بوغيد ضمن ملوك البربر في الوطن الجزائري غير أنا لم نتحقق المراد بالقسم الغربي من نوميديا، وفي مرسي: إن يوبا كان ملكا على نوميديا الشرقية والوسطى، وأن مصانسيس كان على قسم سطيف من نوميديا، وأن القسمين الأولين جعلتا مستعمرة رومانية، وأن مملكة مصانسيس منحت لستيوس، وأن قسم سطيف الحق بموريطانيا الشرقية، ومراده أنه أضيف لبوغيد على ما يفسره قوله في موضع آخر، وإذن فقسم سطيف هو المراد من نوميديا الغربية، وفي غروت: إن بوكوس الثاني أخذ موريطانيا السطيفية.

في هذه الأقوال ضرب من الإجمال لم نجد ما يفسره من الأنقال، ولكن إذا استعنا بالمفسر على المبهم سهل علينا فهم بعض ما لم نفهم[٣٧]، ذلك أن مستعمرة الرومان قد علمت أنها تشمل قالمة وعنابة، فتكون هاتان العمالتان حد نوميديا الوسطى غربا، وأن مستعمرة ستيوس قد علمت حدودها أيضا، فما بقي من نوميديا غربا قسم بين الأخوين بوكوس وبوغيد، وهو ما عبر عنه غروت بموريطانيا السطيفية، وعبر عنه مرسي مرة بقسم سطيف، وأخرى بالقسم الغربي لنوميديا، ويكون قول غروت؛ بوكوس أخذ موريطانيا السطيفية لا يعني به جميعها، هذا ما أمكننا فهمه من ذلك الإجمال والإضطراب بعد العجز عن إيجاد شرحه في أي كتاب ..

كان قيصر يريد اسقاط الجمهورية، فكان الجمهوريون ضده، فبعد ما غلبوا بإيطاليا ثم أفريقية ذهب من بقي منهم إلى اسبانيا ومعهم من امراء البربر عرابيون ابن مصانسيس، فذهب قيصر إلى حربهم، وبقي برغيد معينا له هنالك أيضا، ووقعت حروب بينه وبين الجمهوريين من شيعة بمبيوس، وأخيرا انتصر عليهم في منده من بلاد إسبانيا سنة (٤٥). وتوفي بوغيد سنة (٤٤).

---

٣٧ الشيخ مبارك الميلي عالم فقيه صاحب أصول، وهذه من فوائد الأصول، إذا جاء النص مبهما فسرناه بمفسّر.

[٤٣ - عرابيون]

عرابيون هو ابن مصانسيس. لما قسم قيصر مملكتي والده ويوبا على ما سبق بيانه ذهب هو إلى الأندلس. وبها شيعة بمبيوس. فجمع هنالك جيشا من اللصوص واشتغل بالحرابه زمنا، ثم ازداد جيشه قوة وازداد هو مهابة. فقاتل قيصر هنالك.

وفي سنة (٤٤) توفي قيصر وبوغيد عدوا أبيه، فرأى أن الوقت مناسب لاسترجاع مملكتة والده، فعاد إلى وطنه بمن معه من الجنود، وجمع اليه شيعته من النوميديين، وبعث منهم بطائفة إلى بمبيوس الصغير ليعلهم حسب الانظمة الرومانية، ومن غير شك أن النوميديين استبشروا، بعوده إليهم لأنهم صاروا تحت أجانب عنهم في الوطن او في الجنس والوطن جميعا.

خلف بوغيد ابنه بوكوس الثالث. ورأى عرابيون ما له من الجنود، فعزم على حرب بوكوس لينتزع منه نوميديا السطيفية. وكان بوكوس غريبا عن محكوميه فاستنجد بوكتافيوس المستب برومة بعد قيصر، فلم ينجده لاشتغاله بتثبيت قدمه برومة.

تحارب الملكان البربريان، فكانت الخيبة نصيب بوكوس، واسترد عرابيون منه نوميديا السطيفية، وبقي له ستيوس. فدبر له مكيدة نجح فيها فقضى على حياة هذا الإيطالي المتملك على البربر. واسترجع بذلك جميع ما كان يملكه أبوه، ولكثرة الفتن برومة بين الجمهوريين والقيصريين ذهب دم ستيوس هدرا[٣٨]، ولم يتوجه على عرابيون من الرومان أدنى بحث أو مسؤلية[٣٩].

في هذه المدة كان الوالي بأفريقية القديمة كورنفسيوس، وأعطيت نوميديا الحديثة لوكتافيوس. فوجه اليها عامله سيكتيوس، وطمع في الاستيلاء على أفريقية القديمة أيضا، فوقعت الحرب بين الوالي والعامل، وخاطب كلاهما عرابيون مستنجدا به، فتريث في الإجابة مفكرا في أي الرجلين أوفق بسياسته، ثم رأى أن الأصلح له إجابة وكتافيوس فانضم له.

---

[٣٨] لم يطالب به أحد.

[٣٩] لأنه كان إذا وقع شيء في إفريقيا أرسلت روما مجلس الشيوخ.

وبينما كورنفسيوس محاصر لقرطة اذ بلغه ان عرابيون انتصر لوكتافيوس، ففشل وغادر قرطة فارا إلى ولايته، ولحقه عرابيون، وتلقاه سيكستيوس شرقا، فانحصر بين عدوين، وأمعن عرابيون في جنوده قتلا، فلم ينج منهم إلا القليل[٤٠].

دخل بعد هذا الانتصار سيكستيوس إفريقية، وعاد عرابيون إلى مملكته بغنائم قيّمة، وقد يكون توسع في نوميديا الحديثة، وفي سنة (٤٣) اصطلح وكتافيوس وانطونيوس، وتشكلت حكومة رومة من رؤساء ثلاثة. هذان الاثنان ولبيدس، وبقيت إفريقية تحت وكتافيوس ولكنه عزل سيكستيوس وعوضه بفانغو.

وفي سنة (٤٢) اقتسم الرؤساء الثلاثة المملكة الرومانية من جديد، فاخذ انطونيوس إفريقية الأصلية، وأخذ وكتافيوس نوميديا والجهات الغربية، فكلف سيكستيوس بالنيابة عن انطونيوس في افريقية، وفانغو بالنيابة عن وكتافيوس في نوميديا الحديثة.

ولسوء ادارة فانغو ثارت عليه البربر وامدهم عرابيون، ولكن فانغو انتصر عليهم ففر عرابيون إلى سيكستيوس، وطلب منه فانغو تسليمه فلم يسلمه، فهجم على إفريقية وعاث فيها فسادا، فدافعه سيكستيوس، وأعانه عرابيون والنوميديون، فكانت الهزيمة على فانغو.

وبعد هذا خدع سيكستيوس عرابيون وقتله غيلة، فمن المؤرخين من قال: قتله لأنه كان قد أعان وكتافيوس على انطونيوس، ومنهم من قال: لأنه كان يخشى نفوذه ويغار منه، وليس الجمع بين الأمرين بمعتذر. غضب فرسان نوميديا لقتل عرابيون، فذهبوا إلى فانغو واغروه بسيكستيوس فتحارب هذان العاملان، ولكن فانغو غلب فقتل نفسه، وأصبح سيكستيوس هو الوالي الوحيد بإفريقية الأصلية ونوميديا الحديثة، قال مرسي: "وربما ضم إليه ما كان تحت ملك عرابيون"

كان عرابيون عاملا جريئا مفكرا داهية شجاعا مقداما صاحب آمال كبيرة: ينوي إخراج الرومان من نوميديا، ولكن لم يساعده القدر، وسلك سبيل غيره من عظماء البربر، فذهب ضحية الاستقلال قبل

[٤٠] كان واليا وعاملا له.

أن يحقق تلك الآمال، وهكذا اتخذ عظماء الرومان قتل الأحرار سبيلا لترضية جشعهم في الاستعمار، وكان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا الذين وقفوا في وجه الاستعمار الروماني واوقفوا سيره[٤١].

[٤١] يعني هذه الأرض توالت عليها الكثير من الحروب والأطماع ولا تزال.

[٢٤ - بوكوس الثالث (٤٤ - ٣٣)]

بوكوس الثالث هو ابن بوغيد الأولن جلس على عرش الملك بعد وفاة أبيه، وانتزع منه عرابيون نوميديا السطيفية.

وفي سنة (٤٠) توفي بوكوس الثاني، وورثه ابنه بوغيد الثاني، وكانت الحرب بالأندلس بين وكتافيوس وانطونيوس. وكان الأول عدوا لبوكوس الثاني صديقا لبوكوس الثالث. فألح انطونيوس على بوغيد الثاني في اعانته على عدو أبيه، فذهب سنة (٣٨) إلى الأندلس بجيوش كثيرة نصرة لأنطونيوس، وبغيبته اختل نظام مملكته وقامت بها الثورات.

شاهد بوكوس الثالث ما حل بمملكة ابن عمه، فوثب عليها وملكها، ولما عاد بوغيد من الأندلس لم يجد سبيلا لاسترجاع ملكه، فذهب إلى الاسكندرية- ومصر اذ ذاك تحت يد حليفه انطونيوس- فولاه هنالك اعمالا جليلة، وتوفي بمدينة ميطون.

أصبح بوكوس ملكا على موريطانيا الشرقية والغربية، قال اغسال: "وهذه المملكة عبارة عما بين جيجل شرقا، والمحيط الاطلانتيقي غربا[٤٢]" ولم تتدخل رومة فيما وسع به بوكوس مملكته لمكانة من وكتافيوس، وانتقل بعد هذه التوسعة الى يول (Yol)[٤٣] وجعلها عاصمة ملكه، واستقر بها إلى أن توفي سنة (٣٣) ولم يترك عقبا، قال مرسي: وكانت مدته- بصفة إجمالية- مدة هناء، أو نقول: ان عصره غير متضح للمؤرخ.

كان بوكوس هذا خاتمة أسرة بوكوس الأول الذي وسع مملكته على حساب ملوك نوميديا، كما كان عرابيون خاتمة ملوك نوميديا: وهكذا تقارب زمن انقراض هاتين الأسرتين اللتين تولتا ملك البربر حقبا، وقضى عليها التنافس[٤٤].

---

[٤٢] كان نطاق موريتانيا قديما واسعا.

[٤٣] شرشال.

[٤٤] نقف عند هذ الحد -الخامس والعشرين- والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.